بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة عبد الله نديم أفندي

هو عبد الله بن مصباح بن إبراهيم، الأديب الألمعي، والخطيب المفوه، نادرة عصره، وأعجوبة دهره. ولد أبوه ببلدة الطيبة بمديرية الشرقية في شهر ذي الحجة سنة ١٢٣٤، ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية، فكان في مبتدأ أمره نجارًا للسفن بدار الصناعة، ثم اتخذ له مخبزًا لصنع الخبز، ومات بالقاهرة في ٤ رجب سنة ١٣١٠. وولد المترجم بالثغر المذكور في عاشر ذي الحجة سنة ١٢٦١ ونشأ في قلة من العيش، ومالت نفسه إلى الأدب، فاشتغل به واسترشد من أهله، وطالع كتبه، وحضر دروس الشيوخ بمسجد الشيخ إبراهيم باشا. وكان قليل الاعتناء بالطلب، غير مواظب على الدرس، إلا أن الله وهبه ملكة عجيبة وذكاء مفرطًا، فبرع في الفنون الأدبية، وكتب وترسل ونظم الشعر والزجل، وطارح الإخوان، وناظر الأقران. ثم بدا له أن يتعلم صناعة للكسب، فتعلم فن الإشارات البرقية، واستخدم في مكتب البرق ببنها العسل، ثم نقل إلى مكتب القصر العالي، سكنِ والدة الخديو أيام ولاية ابنها إسماعيل باشا، وبقي به مدة عرف فيها كثيرًا من أدباء القاهرة وشعرائها، مثل الأمير محمود سامي باشا البارودي، ومحمود أفندي صفوت الساعاتي، والشيخ أحمد وهبي. ثم غضب عليه خليل أغا؛ أغا القصر، وكان في سطوة لم يبلغها كافور الإخشيدي، فأمر بضربه وفصله، فضاقت به الحيل ورقت حاله، حتى توصل إلى الشيخ أبي

سعدة عمدة بداوي بمديرية الدقهلية، وأقام عنده يقرئ أولاده، ثم تشاحنا وافترقا على بغضاء. واتصل بالسيد محمود الغرقاوي، أحد أعيان التجار بالمنصورة، فأحسن منزله، وفتح له حانوتًا لبيع المناديل وما أشبهها؛ فكانت نهاية أمره أن بدد المكسب ورأس المال، وجعل يجوب البلاد وافدًا على أكابرها، فيكرمون وفادته ويهشون لمقدمه؛ لما رزقه من طلاقة اللسان، وخفة الروح، وسرعة الخاطر في النظم والنثر، فيطوف ما يطوف ثم يأوي إلى دار الغرقاوي بالمنصورة، إلى أن ورد طنتدا سنة ١٢٩٣، واتصل بشاهين باشا كنج مفتش الوجه البحري إذ ذاك، ولاتصاله به سبب لا بأس من ذكره: وهو أن الباشا المذكور كان بينه وبين الشيخ محمد الجندي أحد العلماء بالمسجد الأحمدي صحبة وتزاور، وكان الشيخ يتعشق غلامًا حلاقًا، مليح الشكل، حسن الصوت، فأمره مرة أن يغني بحضرة الباشا، فغنى بقول المترجم:

سلوه عن الأرواح فهي ملاعبه ... وكفوا إذا سل المهند حاجبه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره ... وولوا إذا دبت إليكم عقاربه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده ... فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه
أراه بعيني والدموع تكاتبه ... ويحجب عني والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدني الحبيب لصبه ... سوى زفرة تثني الحشا وتجاذبه
فلا أنا ممن يتقيه حبيبه ... ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه
ولو أن طرفي أرسل الدمع مرة ... سفيرًا لقلبي ما توالت كتائبه

وكان كثيرًا ما يتغنى بها، فطرب الباشا طربًا شديدًا، واستظرف قائل الأبيات وتمنى رؤيته، فأرسلوا له بالحضور. فلما حضر إلى طنتدا

وواجهه، استقبح صورته، إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه، ومال إليه، فاتخذه نديمًا لا يمل، ورفيقًا حيث حلَّ. فلما استقرت به النوى وملأ يده من الباشا، استعداه على أبي سعدة الذي كان يقرئ أطفاله، وادعى أنه أخر له ثلاثين دينارًا من أجرة التعليم، فأمر الباشا بإشخاصه إلى طندتا، وألزمه أن يدفع للمترجم مائة، فدفعها عن يد وهو صاغر. وكان مجلس شاهين باشا محط رحال الأدباء ومنتجع الشعراء والندماء، لا يخلو من مطارحات أدبية، ومساجلات شعرية، وللمترجم بينهم المقام الأعلى، والقدح المعلى. وحسبك ما وقع له مع طائفة (الأدباتية) وهم مشهورون بالقطر المصري يستجدون الناس في الطرق بإنشاد الأزجال والضرب على الطبل، وأغلب أزجالهم مرتجلة في مقتضى الحال، فكان للمترجم معهم يوم مشهود، ذكره في مجلة الأستاذ ومنها نقلناه. قال:

«اتفق لي أني كنت بمولد سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه سنة ١٢٩٤ هجرية، وكان معي السيد علي أبو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري، فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام، فأخذا يمدحاننا واحدًا فواحدًا، إلى أن جاء دورهما إليَّ، فقال أحدهما يخاطبني:

أنعم بقرشك يا جندي وإلا اكسنا أمال يا أفندي
إلا أنا وحياتك عندي بقى لي شهرين طول جيعان

فقلت على سبيل المزح معه:

أمـــا الفلـــوس أنـــا مديـــشي وأنـــت تقـــول لـــي مـــا مشيـــشي
يطلـــــع علـــــيَّ حشيـــــشي أقـــوم أملـــص لـــك لـــودان

ثم أخذنا نتبادل الكلام نحو ساعة، حتى غلبا عند ما فرغ محفوظهما، فلما قمنا وتوجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا وكنا نازلين عنده جميعًا، أخبره السيد علي أبو النصر بما كان منى مع الأديبين، فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدبية وطلب منه أن يستحضر أمهر الأدبية عنده، ووعده أنهم إن غلبوني يعطهم ألف قرش وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين كرباجًا، فرضي بذلك. واستحضر الشيخ داود والحاج إسماعيل الشهيرين بعمل الزجل وإنشاده ارتجالًا في أي غرض، واستحضر معهما ستة من أشهر الحفظة المقتدرين على الارتجال أيضًا، وعقد الباشا لذلك مجلسًا أمام بيته بطنطا وأجلسني بينه وبين المرحوم جعفر باشا مظهر. وقد وقف الناس ألوفًا والعساكر تدفعهم عنا، ثم ابتدأ الشيخ فقال:

أول كلامـــــي حمـــــد لله ثـــم الـــصلاة علـــى الهـــادي
مـــاذا تريـــد يـــا عبـــد الله قـــدام أميرنـــا وأســـيادي

فقلت:

إنـــي أريـــد أحمـــد ربـــي بعـــد الـــصلاة علـــى المختـــار
وإن كنـــت تطمـــع فـــي أدبـــي أســـمعك حـــسن الأشـــعار

فقال:

دعنـــا مـــن الأدب المـــشهور وادخـــل بنـــا بـــاب الدعكـــه

نـــدخل علـــى أســـيادنا بـــسرور ونغـــــنم الخيـــــر والبركـــــه

فقلت:

هيـا احـتكم فـي البحـر وشـوف فـــــن النـــــديم ولا فنـــــك
دلوقـــت تـــسمع يـــا متحـــوف أحـــسن أدب وحيـــاة دقنـــك

فقال: هات مدح في الحضرة على قد:

تعمـــل عمايلـــك يـــا منـــصان يـــا أبـــو الـــشفيفة العـــسلية
يـــا صـــاحب الحجـــل الرنـــان ودي الأمـــــور الحيليـــــه
مـــاذا تريـــد مـــن دي الولهـــان قـــل لـــي واســـعف
أحـــسن أنـــا مـــن خمـــر الحـــان قـــصدي أرشـــف
وإن كنـــت تـــسمح يـــا أبـــو الخيـــر يبقـــى الوصـــال الـــدوا ليـــه

فقلت:

المجلـــس العـــالي محمـــود فيـــه الأمـــارا والأعيـــان
واليـــوم دا يـــوم مـــشهود خلعـــت عليـــه حلـــة إحـــسان
شـــاهين باشـــا فيـــه موجـــود حظـــــو ازهـــــر
أمـــا المـــدير هـــذا المـــسعود جعفـــــر مظهـــــر
فإنـــه فـــي النـــاس معـــدود مـــن ضـــمن أربـــاب العرفـــان

(دور)

مجلـــس عليـــه حـــسن مهابـــه كأنـــه مجلـــس ســـلطان
والحاضـــرين أهـــل نجابـــه وينقـــدوا قـــول الإنـــسان

obeikandl.com

اتــرك بقــى شــرب الغابــه وانـــــشد نـــــسمع
وإن كــان تغنــى بربابــه تطـــــرب مجمـــــع
حــسن الكــلام مثــل سـحابه تمطــر علــى شــجر البــستان

فقال:

القــصد منــك يـا نـديمنا تعمــل زجــل هِيلــه بيلــه
إلا أنــت دلوقــت غريمنـا قــصدي احــدفك بالقلقيلــه
وإن كنــت تجهــل تقريمنـا اســـــأل عنــــا
إوعــا تعيــب فــي تكليمنـا واحــــذر منــــا
أحــسن أوديــك لعظيمنـا يــشيلك ألفــين شـــيله

فقلت:

انتــا صــغار لِــسّه نونــو وفــي الزجــل منــتش مجــدع
اتبــع نــديم تلقــى فنونــو تأتيــك مــن المعنــى الأبــدع
أمــا عظيمــك وجنونــو ياكـــــل نفـــــسه
وإن كــان يعــارض بمجونــو يطلـــــب عكـــــسه
لأن فنــــي وشـــجونو لكـــل متعنـــتظ يـــردع

وبعد أن دار الكلام بيني وبينه في كثير من هذا الوزن، قام الشيخ داود وقال:

قصدي أقول كلاما يحكي لضمات الزهور هات اشجنا بنظام
من فن كان وكان
ادخل بنا لمعان كالبكر من خلف الستور في قلب متحل

في النظم بالإتقان

فقلت:

اسمع كلام نديم من طيه كل سرور واعقل نصيحة حبر
يدعوك للعرفان

لا تستخف لو كان من أوهي الطيور واصفح فكل صفوح
يعلو على الأعيان

واخش اللئيم دواما فاللؤم داع للشرور واحفظ مودة حر
في عهده ما خان

لا تصطحب بوضيع بنزلك عن سرج الظهور واصحب أخي شريفا
واطلب رضا الإخوان

وانزل ببيت كريم إن كنت ضيفا في العبور واسمع سؤال فقير
أودى به الحرمان

هذي نصيحة حر قد جرب الدهر الجسور إن كان يعجب هذا
أولا فخذ تبيان

فالبحر بحر لآل إن قلدت زانت النحور والفكر فكر ذكي
لا يعرف النسيان

فأعرض عن كان وكان عجزًا منه، وقال: هات فخرا على قد

يـــا صـــبا نجـــد ورامـــه هجـــت للمـــشتاق وجـــدا
كـــل صـــب فـــي غرامـــه مـــا اشـــتكى فـــي الليـــل ســـهدا
عنفـــــوني عـــــذبوني ذقـــت فـــي التعـــذيب شـــهدا

obeikandi.com

والهـــوى أحـــرق ضـــرامه كـــل أحـــشائي وقلبـــي

فقلت:

فخـــر مثلـــي فـــي بيانـــه والغبـــي يفخـــر بمالـــه
والأدب أحـــسن صـــفاتي فالـــذكي حـــسنو كمالـــه
واللبيـــب يظهـــر بعلمـــو والغـــلام مجـــده جمالـــه
كـــل قـــول المـــرء يفنـــى غيـــر محمـــود المـــآثر

فقال:

فخـــر مثلـــي نكايـــت تـــضحك الـــشيخ العبـــوس
الحـــس المعنـــي برجلـــي واشـــرب القـــول بـــالكؤس
لا تلـــم مـــن قـــال حظـــي وائتناســـي بـــالفلوس
لا تقـــل زيـــد وعمـــرو لـــيس فـــي النحـــو مفـــاخر

فقلت:

الفلـــوس حـــظ المفلـــس والجعيـــدي والحرامـــي
والعلـــوم روض الأكـــابر لطفهـــا فـــي العقـــل نـــامى
والمـــضاحك والمـــساخر مالهـــا دخـــل ف كلامـــي
كـــل مـــضحك بـــين قومـــو مـــسخرة للمجـــد خاســـر

فقال:

ســـاعة الحـــظ وحيـــده عنـــد محبـــوب وحـــان
لا أبـــالي يـــوم أنـــسى بالمعـــاني والبيـــان

منتهـــى قـــصدي فلـــوس تمـــلا البيـــت بـــالأوان
إن كيـــــسي إن كيـــــسي مجمـــع الـــدنيا ولآخـــر

فقلت:

كـــل مـــا فـــي الكـــيس يفـــارق يـــا دود اســـمع وفكّـــر
والفخـــار والمجـــد كلـــو فـــي العلـــوم فاطلـــب وبكـــر
وإن تكـــن شـــيخ حـــق عـــالم فـــامش بـــين النـــاس وذكّـــر
تحيـــى كـــل النـــاس بعلمـــك بـــل تـــرى المجمـــوع شـــاكر

وبعد مبادلة الكلام في هذا الوزن نحو نصف ساعة، قال: هات غزلًا على قد:

مـدود حمـارك مطرحـو فـي الغـيط فـــي جنـــب بـــستان الأميـــر
وإن كان يجي لك لدارك اربطو في أحـــسن يبرطـــع فـــي الحمير
وإن كان مكسر فإنه يمنعك م الميط وقـــت الـــسفر فـــي الهجيـــر
إوعـــا حمـــارك يـــا فتـــى إوعـــاه أحـــسن مـــا تمـــشي علـــى القـــدم

فقلت:

مـن يـوم عرفتـك والفـؤاد ولهـان فـــي حـــسنك الزاهـــي النـــضير
والخـد مـن دمـع العيـون ريـان تجـــرى عليـــه كالغـــدير
أبيـت ليلـي بـالأرق سـهران بـــين الكراســـي والـــسرير
وكـــل وردي فـــي الـــدجى آه آه مـــن يـــستطع مـــن يـــصبر

(دور)

قلبي المعذب في لهيب الخدود والوجد في الأحشا جحيم
بالله من أوراك باب الصدود لقتل مضناك العديم
أين الوفا يا منيتي بالوعود ورقة القلب الرحيم
أوّاه من نار الجفا أوّاه لو يعشق الريم يعذر

(دور)

قد كان في سعد السعود خدام لما التقينا في الطريق
وقلت بالحاجب أروح قدام وأنت ورايا يا صديق
فصرت أنظر للقوام القوام وعادل القد الرشيق
حتى ملكت الروح واروحاه لو يرجع اليوم ينظر

(دور)

قال المدلع عاشقي ما الحال جفني جرح منك الفؤاد
كم من شجى ملك سباه الحال حتى غدا خصم الرقاد
قلت ارحموا من في التصابي مال عن كل أبواب الرشاد
قال إن ترم مني الوصال وصفاه هات اليمين الأكبر

ثم طلبت منه أن يأتي باليمين من هذا الوزن فوقف، فقصدت الحاج إسماعيل فوقف، فطلبت من الستة فوقفوا، فقال المرحوم شاهين باشا: نحسبها لك واحدة. ثم قال الشيخ: هات غزلًا بمعنى بديع على قد:

أهيف رشقني بقوام مثل المران والوجد عذبني بناره

فقلت له: أقول تحميله، وتقولون أخرى من جنسها. فقال: هات.

فقلت:

يا أهل الصبابا يا عشاق سلوا المشتاق فالعشق ما له غير أهله

فوقف الجميع، ولم يستطع واحد منهم الدخول معي في هذا المضيق. فقلت ومشيت إلى آخر الأدوار الآتية:

أشكو إليكم أحزاني بل هجراني من أهيف صادني نبله
أهيف بنظره في خده خدني عبده وجت سقامي تشهد له
وأدمعي نزلت تجري تنظر صدى رأت فؤادي بيرقص له
قالت لو أتلفت عيوني قال سيبوني سيد الملاح يعرف شغله
ما دمت إني في رقه ياخد حقه وإن مال يعتقني من أصله
أنا خديم ولّا أكتر الله أكبر العشق ما ينكر فضله
العشق ترياق الأرواح ويا الأشباح ونا الذي طاب لي نهله
ما يعرف العشق الأجلاف ياهل الأنصاف ما للعذول يكثر عزله
عاقل رأى مجنون يشرب حتى يطرب فراح شعوره مع عقله
ومال لعذلي يتفرج بل يدرج للعشق لما حان قتله
ظن الغرام قصعة فته فوقها حته من لحم قد طاب له أكله
لما رآه سلب الألباب خاف الأسباب وراح يعضعض في نعله
وصرت وحدي متهني أفضل أغني للحب إن شخشخ حجله
أرعى النجوم والنار تكوي قلبي المشوي والوجد كتفني بحبله
قد بعت روحي للفتان من غير أثمان وبعت ملكي من أجله

كيف الخلاص والقلب كسير والصب أسير والجفن يجرحني بنصله
والشهد في ثغر المحبوب هوَّ المطلوب لكن أخاف قرصة نحله
خالو يلوح كالشمسية في الظهرية والخد نايم في ظله
عزمت وجدي يتعشى جو الأحشا فجه بخيله مع رجله
والصدر وسع له النادي يا أسيادي والكبد قامت تطبخ له
والعين كبت خمرتها من فرحتها والقلب قابلنا بطبله
قعد وربع في صدري والنار تجري مثل الصواريخ من حوله
لما رأى روحي وجدي أتلف كبدي بعث رسالة مع رسله
يقول يا مسكين مالك بَيِّن حالك عسى يكون عندي حله
فقلت يا سيدي عبدك من نار خدك حرق اللهيب جسمه كله
أخذت حبيب قلبي النخوة بعد القسوة وجا يغازلني بدله
خطر ولكن في قلبي بهجة لبي وجاد لمسكينو بوصله
من فرحتي هرولت أبكي من غير ما شكى والدمع من كتر وبلّه
حركت قلبه للرحمة من دي الفحمة فجاد بياسمينو وفله
فقلت أحييت الفاني يا إنساني الله يجازيك بفضله
وكان ما يرجو للعاشق غير الفاسق والسر لا يحسن نقله

وإلى هنا صفق الباشا والحاضرون، ثم عدنا للزجل المعتاد بما يطول ذكره، فإن الشيخ رمضان كتب من زجل هذا المجلس خمسة كراريس، وكله محفوظ عندنا لم يضع منه شيء. وقد استمرت المناظرة ثلاث ساعات». انتهى ما نقلته من الأستاذ، ولقد سألت بعض من حضر هذا

المجلس عما كتبه المترجم، فأنكره، وأخبرني أنه تغالى فيما كتب، وذكر أناسًا لم يكونوا حاضريه، والله تعالى أعلم.

ثم اتصل المترجم بالبيك التتونجي فجعله وكيلًا على ضياعه، وما زال حتى لحق بالإسكندرية مسقط رأسه، ومنبت غرسه، وكان منه ما سنقصه عليك.

تلك خلاصة ترجمته في أول أمره، ومبتدأ خبره. وكان القطر المصري في تلك الأثناء في اضطراب وهرج ومرج من اختلال الأحوال وفساد الحكام واعتلاء الإفرنج على الأهلين، وقد سئم الناس حكم إسماعيل باشا وتمنوا زوال دولته. فلما وفد المترجم على الثغر رأى لفيفًا من الشبان ألفوا جمعية سموها «بمصر الفتاة» يتآمرون فيها سرًّا خوفًا من بطش الخديو، فعرف منهم البعض، واشتغل بالكتابة في صحف الأخبار، فأعجب الكتاب بمقالاته واقتدوا به في تحسين الإنشاء، وكان سقيمًا منحطًّا في ذلك العهد. ثم سعى مع جمع من الأدباء فألفوا جمعية سموها «بالجمعية الخيرية الإسلامية» سنة ١٢٩٦ آخر سني إسماعيل باشا في الحكم، وجعلوه مدير مدرستها، ثم عزل الخديو وتولى ابنه توفيق باشا؛ ففرح الناس وظنوا انفراج الأزمة، وجد المترجم واجتهد في إنجاح مسعاه في الجمعية، حتى حمل الخديو على زيارة مدرستها، فزارها يوم امتحان تلاميذها، وجعلها في حماية ولي عهده عباس بيك، وأنعم لهم بالمدرسة البحرية يدرسون بها، وأجروا عليها من الحكومة مائتين وخمسين دينارًا في السنة مساعدة. وطفق المترجم يؤلف القلوب ويحض الأهلين على

الالتئام بالمقالات والخطب ينفثها قلمه ولسانه، وألف قصة سماها: «الوطن وطالع التوفيق» وأخرى سماها: «الحرب» شرح فيهما ما كانت عليه حالة القطر وما طرأ عليه، ثم مثلهما هو وتلاميذه بأحد ملاعب الثغر بحضور الخديو، فكان لهما تأثير كبير في النفوس، واشتهر المترجم وعلا كعبه، ولهج الناس بذكره، ثم طرأ فساد على الجمعية نسبوه إليه فانفصل منها، وكان شرع في إنشاء صحيفة سماها «التنكيت والتبكيت» مزج فيها الهزل بالجد؛ ظهر أول عدد منها في ٨ رجب سنة ١٢٩٨، وظهر في أثناء ذلك وميض الثورة العرابية من خلل الرماد، فوافقت هوى في نفس المترجم لميله إلى الشهرة وبعد الصيت، فضموه إليهم وشدوا أزرهم به، فملأ صحيفته بمحامدهم، ودعا إلى القيام بناصرهم، وخطب الخطب المهيجة، ونظم القصائد الحماسية، وندب الوطن ورثاه، وحضَّ على الاجتماع والتكاتف ونبذ أضاليل الإفرنج؛ فأثرت قالته في النفوس وأشربتها القلوب، وادعى الشرف، وانتسب إلى الإمام الحسن السبط رضي الله عنه، والله أعلم بتلك النسبة، فقد رأيت كثيرين ممن عرفوه ينكرونها. ثم أوقف صحيفته بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عددًا آخرها تاريخه ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢٩٨، وكانت أسبوعية تظهر يوم الأحد. وانتقل إلى القاهرة وهي جذوة من نار، وغير اسم صحيفته بأمر عرابي باشا كبير الثوار فسماها «الطائف» تيمنًا باسم بلدة بالحجاز مشهورة، وتفاؤلًا بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب أحمد فارس. واسترسل المترجم مع رجال الثورة حتى صار جُذيلها المحك، وعُذيقها المرجب، ولقبوه بخطيب الحزب الوطني، وقام سراة القطر وأغيانه يعقدون

المجتمعات ويولمون الولائم للعرابيين، ويدعون المترجم للخطابة، فكانت له بها المواقف المشهودة، والأيام المعدودة، حتى استفحل الأمر وقامت الحرب بالأسكندرية بين الإنكليز والمصريين يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ١٢٩٩، فسافر المترجم إليها مع جماعة من رؤساء الجند وبات بها ليلة، ثم لحق بعرابي باشا وقد انهزم إلى كفر الدوار، ثم انتقل معه إلى التل الكبير وهو ينشئ صحيفة الطائف بالمعسكر، فيضمنها أخبار الانتصار، ويحشوها بالأكاذيب تهدئة للأفكار، حتى الهزيمة الكبرى على المصريين بالتل الكبير، ففرَّ عرابي باشا وعلي باشا الروبي ومعهما المترجم إلى القاهرة يوم الأربعاء ٢٩ شوال من السنة المذكورة، واتفقوا على إرساله الأسكندرية بكتاب يطلبون به العفو من الخديو فسافر به يوم الخميس، ولما وصل إلى كفر الدوار بلغه القبض على زعماء الثورة ودخول الإنكليز القاهرة، فعاد إليها ليلًا وبقي في داره بجهة العشماوي إلى الصباح، وخرج مع والده وخادمه فركبوا عجلة وقصدوا بولاق، ورآه شاهين أفندي فؤاد المفتش بالمصرف العقاري، وهو من مماليك عباس باشا والي مصر، فظنه غير مطلوب، قال: ولولا ذلك لقبضت عليه. فلما وصلوا إلى بولاق ودعه أبوه واختفى هو وخادمه ولم يظهر لهما أثر. فأقام مختفيًا نحو تسعة أعوام لا يهتدي إلى مكانه، وقد أعيا الحكومة المصرية أمره حتى جعلوا ألف دينار لمن يرشد إليه، وبثوا عليه العيون فلم يظفروا منه بطائل، فلما أعيتهم الحيل حكموا عليه بالنفي مدة حياته من القطر المصري، ويئس أصحابه من وجوده، وأشيع القبض عليه وخنقه سرًّا، ومنهم من أشاع موته حتف أنفه، ومنهم من أشاع هربه إلى بلاد

الإفرنج، فعد اختفاؤه من الأمور الغريبة، ولا غرو فأمره غريب من أوله، وكان من خبر اختفائه أنه لما ودع أباه ببولاق قصد دار الشيخ مصطفى[1] أحد أصدقائه فأقام بها أيامًا، ثم غير زيه فلبس ثوبًا من الصوف الأحمر المسمى بالزعبوط واعتم بعمامة حمراء وسدل على عينيه منديلًا، وأحفى شاربيه وأعفى لحيته حتى تغيرت هيئته، ثم نزل مع خادمه في سفينة قاصدة بنها، ثم انتقل منها ووصل إلى بلدة تسمى منية الفرقى بقرب طلخا، وقصد رجلًا من مشايخ الطريقة الصاوية كان أخذ عليه العهد في السلوك؛ اسمه الشيخ شحاته القصبي، وكان مشهورًا بين الناس بالصلاح والتقوى، فلما دخل عليه لم يعرفه لتغير شكله، فجلس هنيهة حتى انصرف مَن بالمجلس، ثم اختلى به وعرفه حاله وأقام عنده ثلاثًا، ثم أشار عليه الشيخ بالانتقال واعتذر بكثرة الواردين، فتحول إلى دار أحد دراويش الشيخ الموثوق بهم، فآواه شهرًا، ثم قصد بلدة أخرى وطوحت به الطوائح ولقي الأهوال. وحدث أنه نزل مرة مختفيًا عند قوم فأخفوه في قاعة مظلمة يتساوى بها الليل والنهار، ويتوصل إليها من سرداب طويل شديد الظلمة، وكانت أرضها ترشح الماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك البلدة، وكان لا يتمكن من الكتابة والمطالعة إلا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز أو الجاز كثير الدخان، فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة أشهر، ولما خرج منه كاد لا يبصر الطريق لما غشي عينيه. وكان كلما حل أو ارتحل يغير اسمه وحليته، فتارة

(١) ترك المؤلف فراغًا قليلًا؛ لعله كان يريد ملأه بتكملة الاسم.

يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض، ويخضبها بالحناء أخرى. وكان اسم خادمه حسينًا، فسماه صالحًا وخفي أمره على الناس، وظنوه شيخًا من الصلحاء، حتى لقي مرة بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه.

ثم ألقت به يد الأقدار إلى بلدة تسمى العَتَوة القبلية بمديرية الغربية، فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشري فأكرم مثواه وأقام في داره ثلاث سنوات ونيفًا؛ تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به أحد، وزوج خادمه حسينًا بأخت زوجته، ثم مات في أثنائها رب الدار وكان شهمًا ذا مروءة كبيرة، وله امرأة مثله شهامة ومروءة، فاستحضرت أكبر أولادها وأعلمته أن ضيفهم المختفي عندهم هو عبد الله نديم طريد الحكومة، وسألته هل يطمع في الجعل ويسلمه أم يكون كأبيه في حفظ الجار وحماية الذمار؟ فاهتز الولد لقولها وأَبَى إلا أن يقتدي بأبيه في الكرم.

ولعمري إن ما أتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لمما يندر مثله في هذا الزمن.

وتنقل المترجم من بلد إلى بلد، وماتت زوجته، ثم ذهب إلى القرشية نزيلًا عند أحمد باشا المنشاوي، فكان يجتمع به صديقه القديم الأديب الأريب محمد أفندي التميمي وغيره، وتزوج هناك ببنت مصطفى مُنى من أهل المحلة الكبرى، إلا أنه لم يحمد المقام فانتقل إلى دار التميمي في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٥ فأقام بها شهرًا، ثم سافر إلى الدلجمون

بمديرية البحيرة، فلم يمكث بها إلا نحو أسبوع، وعاد إلى الغربية وقصد البكاتوش فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ إبراهيم حرفوش وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جوده، وكان رجلًا قوي الجنان لا يبالي بظلام الليل أنَّى سار فيه؛ فصار يصحب المترجم إذا أراد الانتقال من بلد إلى بلد في الليل الحالك، ويتجشم معه أضيق المسالك. وجعل المترجم إقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ينزل فيها عند محمد معبد الحلاق فيلقى عنده من الكرم المروءة ما لقيه إبراهيم بن المهدي عند ذلك الحلاق المشهور مدة اختفائه من المأمون. ولم يزل المترجم حتى انتقل عند صديقه وصديقنا الأديب الكامل والشاعر الناثر محمد أفندي شكري المكي كاتب المركز بدسوق. أخبرني الأديب المذكور؛ قال: بينما أنا بالمركز يومًا إذ دخل على الشيخ إبراهيم حرفوش عمدة البكاتوش فسلم وجلس، ولمحت منه أنه يريد أن يسر إليَّ أمرًا فترقب خلو المكان، ثم أخبرني أن شخصًا عنده مشتاق إليَّ، وهو صديق لي لم يرني منذ ثمان سنوات، فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرني به. ثم صار يتردد علي بعد ذلك يذاكرني في هذا الصديق ولا يبوح باسمه، حتى وثق مني، فأخبرني أنه مختف واسمه عبد الله فقلت: لعله عبد الله نديم، فقال: نعم هو. فكتبت له بيتين من نظمي، وسألته توصيلهما إليه، وهما:

ولقد نذرت إذا لقيتك سالمًا ... لأقبلن مواطئ الأقدام

ولأثنين على سجاياك التي ... حثت على التحرير والإقدام

فذهب بهما، وعاد لي بعد يومين بقصيدة من نظم المترجم بخطه عدتها مائة بيت من البحر والقافية، يتشوق فيها إليَّ ويذكر ما لاقاه أيام الثورة والاختفاء، ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت، وكأنه نسي نفسه وما هو فيه من الضيق، فكتبت له أبياتًا أطلب الاجتماع به. وبعد أسبوع حضر لي إبراهيم حرفوش ومعه ورقة بخط المترجم يطلبني فيها إليه يوم الجمعة بشباس الشهداء، فذهبت في الميعاد فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرني، فذهب بي إلى داره وهي دار صغيرة على تل، وقد أنزلوا المترجم في مكان عال لا سلم له، فصعدت إليه على سلم من الخشب رفعوه بعد صعودي، فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلًا، وأدركتني عليه شفقة فقبلت يده، ثم جلسنا نتحادث في القديم والحديث، وأطلعني على كتبه التي ألفها مدة الاختفاء، منها بديعية له شرحها شرحًا لطيفًا لم يكمله، وثلاثة دواوين من نظمه، وجزء من كان ويكون، ثم فارقته وقت العصر.

انتهى.

وانتقل المترجم عند صديقه المذكور بزوجته وكتبه مدعيًا أنه ابن عمه أتاه زائرًا من الحجاز، وسمى نفسه عليًا اليمني، فمكث نحو ستة أشهر، ثم انتقل بمفرده إلى شباس الشهداء ولحقت به زوجته بعد عشرين يومًا، ثم أعادها بعد خمسة وعشرين يومًا إلى دار شكري أفندي بدسوق ولحقها فمكثا ستة أشهر أخرى، ثم عاد إلى البكاتوش عند أحمد جودة، وكانت زوجته هذه تسيء إليه وتغاضبه فجمعت عليه مع ضيق الاختفاء

سوء معاشرة الأهل، حتى ضاق ذرعه منها مرة وهمَّ بإظهار نفسه للحكومة ثم تراجع وأصلح أمره معها، ولكمته مرة على فمه فكادت تسقط ثنيتيه من الفك الأعلى، فربطهما بخيط من الحرير. وكان خادمه حسين مختفيًا مع زوجته ببلدة الجميزة التابعة لمركز السنطة، فطلبت زوجة المترجم الذهاب إليه فأذن لها، فلما استقرت عنده تشاحنت مع زوجته وكاد الأمر ينفضح، فأسرع الخادم لسيده بالبكاتوش مستغيثًا، فانتقل المترجم إلى الجميزة وأصلح بينهما، وبقي هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام، وعرفه عمدة البلدة فتغاضى عنه وكتم أمره، فكان يخرج للتنزه على غير عادته في الاختفاء فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة، وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به.

وكان يتردد على البلدة رجل يقال له حسن الفرارجي كان منتظمًا في العسكر، ثم استخدم جاسوسًا سريًا، فلما بصر بالمترجم[1] أنكر حاله لما رآه عليه من سيما الاختفاء، ورجح أنه عبد الله نديم، فكتب إلى الديوان الخديوي ينبئهم بوجود رجل من العرابيين مختف بالجميزة، وأسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره، فأعطوه ورقة بحليته، فلما تحقق منه أخبرهم به، فأمروا بالقبض عليه، وحضر من المديرية محمد أفندي فريد وكيل (الحكمدار) ومعه نفر من الشرطة ستروا ملابسهم بثياب أخرى، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين، وصعد وكيل (الحكمدار) مع الآخرين

(١) تحت هذه الكلمة خط، وبالهامش: فأبصر رجلًا. وأغلب الظن أنه تغيير من بعض مَن نظروا في المخطوطة.

على تل مشرف على أفنية الدور، وأحس المترجم بتلك الحركة، فأوجس في نفسه خيفة، وأراد الانتقال إلى دار أخرى فأخذ عيبته على كتفه وصعد على سطح المكان، فأبصره الذين على التل، فصاحوا وصوبوا بنادقهم عليه، وأمروه بالنزول فنزل، ثم أحاطوا بالدار، وطرقوا الباب طرقًا عنيفًا، وأيقن المترجم أنه مأخوذ لا محالة، ففتحه لهم، وواجههم متجلدًا، فسأله محمد أفندي فريد عن اسمه فقال له: سبحان الله، أتجهل اسمي وأنت مأمور بالقبض علي، أنا عبد الله نديم، ذو الذنب العظيم، وعفو مولاي الخديو أعظم، سلمت أمري لله. فقبضوه هو وخادمه، وأعماهم الله عن كتبه وأوراقه، ولولا ذلك لأصابه شر عظيم بسبب أهاجيه القبيحة في الخديو وأسرته، وكان القبض عليه في ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩، ولم ينل الواشي به شيئًا من الجعل لفوات الأجل المضروب للمكافأة، ثم استاقوهما إلى المركز، وسألوه عمن اختفى عندهم، فلم يقر بأحد، وسألوا خادمه وضربوه، فأقر بالبعض، ونقلوهما إلى المديرية بطنطا، فسجنا بعض أيام، ووكيل النيابة بالمحاكم يوالي سؤالهما، وانتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعمن آواه، ونفيه خارج القطر.

فاختار يافا ثغر القدس الشريف، ووصلها في غروب يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول، ونزل عند السيد علي أفندي أبي المواهب مفتيها، ولما دخل داره وعرفه بنفسه، قام واعتنقه، وضحك وبكى. فأقام عنده شهرًا، ثم اتخذ له دارًا، وعرفه أعيانها وفضلاؤها، وأكرموه وواسوه، جزاهم الله خيرًا. ثم رحل رحلته إلى نابلس وسبطية وقلقيلا وغيرها من البلاد

الفلسطينية. واجتمع بطائفة السامرة واطلع على كتبهم ومعتقداتهم كما رأيته بخطه في كتاب أرسله لأحد أصدقائه في مستهل رمضان. ولم يزل مقيمًا بيافا حتى مات الخديو وتولى ولده عباس باشا في جمادى الثانية، فعفا عنه وأباح له العود إلى مصر. قال في آخر ذلك الكتاب: «عزمنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعالى، فإن موسم سيدنا موسى الكليم يعمل في نصف شوال، ولا أحضر حتى أزوره مرة ثانية، فإنه صاحب الأمر بالعفو عني، وإن كان الظاهر خلافه، وذلك أني عند دخولي حضرته الشريفة أنشدته في الحال:

رجوتك يا كليم الله حاجًا ... أرجيها وقد حققت فضلك
فقل لي مثلما لك قبل أوحى ... إله الخلق قد أوتيت سؤلك

فرأيته ليلًا يقول لي: (قم رَوّح) ثلاثًا، وكانت ليلة ٣ رجب، وهو تاريخ صدور الأمر». انتهى ما نقلته من خطه.

ولما عاد إلى مصر استوطن القاهرة، وأنشأ مجلة الأستاذ في شهر صفر سنة ١٣١٠، فبرزت موشحة ببديع مقالاته وغرر أزجاله وموشحاته، وبدت الوحشة في أثناء ذلك بين الخديو والإنكليز، وكان ما كان من عزله صنيعتهم مصطفى فهمي باشا كبير الوزراء، ومعاكستهم فيما يريدون. فقام المترجم يستنهض الهمم ويحض على موازرة الخديو ونبذ طاعة سواه، وكتب في ذلك المقالات الطويلة بالأستاذ حتى أحفظ الإنكليز، وخشوا من اتساع الخرق لمكانته السابقة من النفوس، وسعى حساده بما سعوا، ولفقوا ما لفقوا، فأوقفوا مجلته في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة،

وأعادوه إلى يافا منفيًّا بعد أن أعطوه أربعمائة دينار، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر، واشترطوا أن لا يكتب بشأن مصر كلمة، ولم ينفعه الخديو لقصر يده.

فلما استقر المترجم بيافا لم يسلم من السعاية به لدى السلطان، فأمر بإبعاده فعاد إلى إسكندرية متحيرًا، ولقد لفظته البلاد لفظ النواة، فسعى له الغازي أحمد مختار باشا وساعده حتى قبله السلطان المعظم عبد الحميد بدار السلطنة، واستخدمه في ديوان المعارف ووظف له خمسة وأربعين دينارًا مجيدًا في الشهر، فأمضى بها بقية أيامه شريدًا عن وطنه، بعيدًا عن أهله وخلانه، حتى اشتدت عليه علة السل، فلقي حمامه في الرابع من شهر جمادي الأولى سنة ١٣١٤.

ودفن بمقبرة يحيى أفندي في بشكطاش، وضاعت مؤلفاته ودواوينه، ولم يظهر منها إلا جزء من «كان ويكون» كان يطبعه ذيلًا للأستاذ، وكتاب آخر نسبوه إليه اسمه «المسامير» محشو بالهجو القبيح في الشيخ أبي الهدى الصيادي نزيل دار السلطنة، فمضى وكأنه لم يكن، رحمه الله رحمة واسعة.

ومن تأمل بعين الاتعاظ في تقلب الأحوال بالمترجم، وما ذاقه من حلو الزمان ومره، وقاساه مدة الاختفاء، ثم النفي حتى مات غريبًا طريدًا، حق له العجب، وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه.

ونشأ المترجم فقيرًا كما قدمنا، وعاش في قلة، فإن أصاب شيئًا بدده بالإسراف، وكان في أول أمره يرتدي الثياب الإفرنجية المعلومة، فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقفطان، واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف، وكان شهي الحديث حلو الفكاهة، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز؛ لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر فرأيت رجلًا في ذكاء إياس، وفصاحة سحبان، وقبح الجاحظ. أما شعره فأقل من نثره، ونثره أقل من لسانه، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا، وقد انتخب أخوه عبد الفتاح أفندي جملة صالحة من مقالاته، جمعها في كتاب سماه «سلافة النديم» فارجع إليه إن شئت.

ونحن ذاكرون من شعره ما يحتمله هذا المختصر، فمن ذلك مرثيته في الخديو محمد توفيق باشا وقد أشار إليها في كتاب أرسل به من يافا في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ يقول فيه: «غمني وكدرني موت الحضرة الخديوية لأمور: (أولًا) فلعفوه عني وإحسانه إليَّ، (ثانيًا) لسابقة معروفة معي وتوجهاته السابقة، (ثالثًا) لصغر سنه، (رابعًا) لصغر سن أنجاله، (خامسًا) لصغر سن حرمه وما تقاسيه من حزنها عليه لما كان بينهما من شدة الألفة والمحبة، (سادسًا) لأنه كان برزخًا بين مصر وبين نكبات إنكلترة وغيرها، والله تعالى يجري الأمور على السداد، وسأبعث بمرثية رنانة لحضرة ولدي مصطفى بك ماهر رئيس ترجمة ديوان الحربية ليطبعها وينشرها على حدتها». انتهى ما نقلته من خطه، ولم أقف إلا على ثلاثة أبيات منها، ذكرها المترجم بالأستاذ وهي:

ما للكواكب لا ترى في المرصد والكون أصبح في لباس أسود
عم الكسوف الكل أم فقد الضيا أم كلنا يرنو بمقلة أرمد

وتاريخها:

فملائك الجنات قالت أرخو توفيق في عز النعيم السرمدي

ومن مختار شعره قوله من قصيدة لم نعثر منها إلا على هذا القدر:

سيوف الثنا تصدا ومقولي الغمد ومن سار في نصري تكفله الحمد

ومنها:

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

ويقال إنه نظمها بحضرة شاهين باشا تبكيتًا لمن زعم قصور الشعراء عن معارضة أبي الطيب المتنبي في قوله:

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بد

قلت: بين القولين فرق ظاهر للمتأمل، وأين الثريا من يد المتناول؟

ومن شعره قوله أيام اختفائه، وكتب بها إلى صديق له يسليه على نازلة نزلت به:

يا صاحبي دع عنك قول الهازل واسمع نصيحة عارف بالحاصل
اجهل تجد صفو الزمان فإنه من قسمة الفدم الغبي الجاهل
ودع التعقل بالتغفل يستقم أمر المعاش فحظه للغافل

وارض البلادة تغتنم من بابها ... مالا وجاها بعد ذكر خامل
وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق ... بحروب دهر لا يميل لفاضل
قلب تواريخ الألى سبقوا تجد ... دنياك ما قيدت بغير الباطل
تجد الأفاضل في الزوايا كلهم ... حال الحياة وبعدها بمحافل
العلم ستر كالسحاب به ترى ... شمس الحقيقة خلف ذاك الحائل
هل أبصرت عيناك ديوانًا به ... مدح البليغ جميل سعد حافل
إن قلت إي فاذكر لنا من ناله ... أو لا فعش كالناس في ذا الساحل
ضدان لا تلقاهما في واحد ... مال الغبي وحكمة للكامل

ثم ذيلها بنثر أضربنا عن ذكره.

ومنه قوله وضمنها كتابًا كتبه مدة اختفائه لأحد أصدقائه:

وبعد فهذا شرح حالة غائب ... عليه من اللطف الخفي ستور
تدور به الأهوال حول مدارها ... فيصبر والقلب الرضي صبور
عسى فرج يأتي به الله إنه ... على فرجي دون الأنام قدير

obeikandl.com

ترجمة سلطان باشا

هو محمد باشا ابن سلطان بن أحمد، من قرية بالصعيد تسمى زاوية الأموات، بالجانب الشرقي من النيل، تجاه منية ابن الخصيب ولد بها سنة ١٢٤٠ أو إحدى وأربعين، ورباه أبوه فسلمه لمعلم للقرآن بالقرية علمه القراءة والكتابة، وحفظه ما تيسر من القرآن الشريف. ولما بلغ أشده تركه أبوه ينظر في أمور القرية المذكورة، إلى أن نقل حسن باشا الشريعي من نظارة قسم قلوصنا، في ولاية محمد سعيد باشا على مصر، فسأله الوالي عمن يقيمه بدله على القسم المذكور، فذكر له المترجم، وأثنى عليه، وضمن كفايته، فأقيم ناظرًا لهذا القسم مدة ثلاثة سنوات، ثم جعله سعيد باشا وكيلًا لمديرية بني سويف، وبعد سنتين جعله مديرًا لها، فبقي فيها إلى أن توفي سعيد باشا، وتولى ابن أخيه إسماعيل باشا، فنقل المترجم مديرًا للغربية فمكث بها نحو سنة، ثم أمر بنقله مديرًا لأسيوط فأقام بها نحو سنتين، ثم جعله وكيلًا لإدارة تفتيش الوجه القبلي، ثم أحال عليه النظر في ضياعه التي بالصعيد المسماة بالجفالك، ثم جعله مفتشًا على مديريات الوجه القبلي، وانحرف عنه في أثناء ذلك عكوش باشا، وشاهين باشا، وعظمت الوحشة بينه وبينهما فوجد حاسدوه فرصة للإيقاع به نظرًا لمكانة الرجلين عند الخديو، فسعوا به عنده ووشوا له بأمور عنه كان يكرهها، فغضب عليه وأمر بسفره إلى السودان رئيسًا لمجلس الخرطوم، وهو في الحقيقة نفى على جاري عادة ولاة مصر، إذا غضبوا على أحد نفوه إلى السودان في صورة تنصيبه بأحد المناصب. فصدع المترجم

بالأمر وسافر، ولكنه لما وصل بني سويف وصله أمر الخديو بالرجوع بسبب تداخل ولي العهد محمد توفيق باشا، وسعيه بالشفاعة له لدى والده لأنه كان يحبه فرجع من الطريق وقصد قريته زاوية الأموات، فمكث بها عدة شهور، ثم أذن له بالإقامة في القاهرة فأقام بها في داره المعروفة بجهة الإسماعيلية مدة، إلى أن جعله الخديو إسماعيل باشا مديرًا للفيوم، ولكنه عادا فألغى هذا الأمر قبل سفره. وبعد نحو سنة رجع بأمر الخديو المذكور إلى بعض المناصب التي كان بها بالوجه القبلي. وخُلع الخديو وتولى بعده ولده محمد توفيق باشا. وقامت الثورة العرابية وطالب العرابيون الخديو بإعادة مجلس النواب، وكان أهمل شأنه بعد توليته، فأجابهم لذلك وألف مجلس النواب، فجعل المترجم رئيسًا له يعلمه من إخلاصه ومحبته له، ثم وقعت بينه وبين العرابيين وأمراء الجند منازعات وخلاف في بعض الأمور، ظهر لهم منها ميله للخديو، فأبغضوه ونووا له السوء.

وقام عليه مرة عرابي وبعض الضباط في داره، فهددوه بالقتل وجردوا سيوفهم في وجهه، وكاد يقع في أيديهم، لولا أنهم تراجعوا عنه من تلقاء أنفسهم، واشتد قلقه بعد هذه الحادثة، ورأى حياته معهم على خطر، فاحتاط لنفسه، وصار إذا جلس بداره وضع بجانبه مسدسًا محشوًّا ليدافع به عن نفسه إذا فوجئ، ولم يغن تهديدهم له شيئًا، ولم يجد في تحويله عن الخديو، بل استمر على إخلاصه، والقيام بمساعدته، والأخذ بناصره. ثم اشتدت الفتنة، وسافر الخديو إلى الإسكندرية، فصحبه المترجم ملازمًا

خدمته، واستدعاه هناك درويش باشا مندوب السلطان في شعبان سنة ١٢٩٩، وأنبأه بإنعام السلطان عليه برتبة روملي بيكلريكي، وأعطاه تقليدها بيده.

ثم قامت الحرب على ساق، بين الإنكليز والعرابيين، فندبه الخديو لمساعدة الإنكليز، وإرشادهم إلى الطرق، فبذل ما في وسعه وكاتب بعض مشايخ العرب والعمد، ومن لهم شأن، يمنيهم بالخلع والرتب والأوسمة، على أن يبذلوا الطاعة للخديو والإنكليز وينبذوا طاعة العرابيين، فنجح في مسعاه، ووافقه الكثيرون، فانضموا للخديو وشيعته سرًّا، ووقع الفشل في زمرة العرابيين، وانهزمت جموعهم، واستولى الإنكليز على مصر ودخلوا القاهرة يوم الخميس مستهل ذي القعدة سنة ١٢٩٩، فأرسله الخديو إليها نائبًا عنه، وأطلق يده في التصرف في الأعمال، فوصلها في ٢ ذي القعدة ليلًا من طريق بورسعيد، واستبد بالأمور أربعة أيام حتى حضر النظار إليها، وباشروا أعمالهم. وقد تاه المترجم وتجبر في هذه الأيام الأربعة، وأمر بالقبض على كثيرين ممن كان له بغية في القبض عليهم وإذلالهم، ومنهم حسين باشا الشريعي، فإنه أوغر صدر الخديو عليه، وأشار بسجنه، ونسي له سابق فضله عليه، وذلك لخلف وقع بينهما إبان قيام الفتنة.

ولما حضر الخديو من الإسكندرية عقب إطفاء الثورة وذهب الناس لتهنئته بقصر الجزيرة يوم الثلاثاء ١٣ ذي القعدة المذكور أثنى أمامهم على المترجم ثناء كثيرًا، وقال: هذا هو الرجل الذي أخلص لنا في السر والعلانية، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الأول، وأمر بإحضاره فوضعه

على صدره بيده أمامهم، ثم سعى له عند النظار للإنعام عليه بعشرة آلاف دينار مصري مكافأة على خدمته ومسعاه، فأعطيت له من ديوان المالية. وكافأه الإنكليز بوسام (سان جورج، وسان ميشيل) من الدرجة الأولى لمساعدته لجندهم إبان الحرب، وذهب به السير مالت قنصلهم الكبير إلى داره وسلمه له يوم الثلاثاء ١٧ محرم سنة ١٣٠٠، وقال له: إن من شروط هذا الوسام أن تضعه مولاتنا الملكة بيدها على صدر من تنعم عليه به، وقد أتيت إليكم نائبًا عنها في وضعه على صدركم جزاء إخلاصكم وولائكم لجلالتها ولحضرة الخديو. ثم في جمادى الأولى من هذه السنة أنعموا عليه أيضًا بالميدالية الإنكليزية المضروبة بخصوص الحرب العرابية.

وبقي المترجم بعد ذلك في داره بالقاهرة بلا عمل، ملقبًا بلقب رئيس مجلس النواب، ثم انتدب للإشراف على شواطئ النيل وجروفه بالوجه القبلي لما زاد في الفيضان، فصدع بالأمر على كره منه، ورأى ذلك حطًّا من مقامه، واستقل العشرة الآلاف والوسامين على ما قام به للخديو والإنكليز، وانعكست آماله التي كانت ترمي إلى تنصيبه في منصب كبير، وفترت نفسه، وكثرت همومه، وانحرف عن الإنكليز، وطفق يذمهم بعد أن كان لهجًا بمدحهم والثناء عليهم في كل مجلس يجلسه، واعتزل الناس فجعل إقامته بالصعيد، ولما ذهب اللورد دوفرين إلى تلك الجهة زاره المترجم فلم يلق منه ما كان يؤمله من حسن المقابلة، وساله في عرض حديثه عن حضور أخوي الخديو حسين باشا وحسن باشا من أوربة، فقال

له: نعم حضرا، فقال: ولم حضرا؟ فأعرض عنه اللورد ولم يجبه، ونقل حديثه مع غيره، فقام المترجم من المجلس كاظمًا غيظه، وزاد في ذمه للإنكليز، وأثرت هذه الأحوال فيه فاعتلت صحته.

ثم صدر الأمر العالي يوم الأربعاء ٢١ محرم سنة ١٣٠١ بجعله رئيسًا لمجلس شورى القوانين الذي ألف حينذاك، بدلًا من مجلس النواب، حسب إشارة اللورد دوفرين في تقريره عن مصر، فتولى هذا المنصب وهو عليل، ثم ازدادت علته، فأشار عليه الأطباء بالسفر إلى أوربة للمعالجة، حيث لم تفده معالجة أطباء مصر، فسافر إلى بلاد النمسة، ونزل بنزل في مدينة غراتس، فوافاه أجله هناك صباح يوم الإثنين ٢٦ شوال سنة ١٣٠١.

ونعى إلى الخديو في ذلك اليوم بالبرق، نعاه له قليني باشا فهمي فأسف عليه أسفًا شديدًا وجزع، وأمر بنقل جثته إلى القطر المصري لتدفن فيه، وأقام له مأتمًا من الخاصة الخديوية، وناط بمحافظ القاهرة القيام به بالنيابة عنه، ووصلت جثة المترجم إلى الإسكندرية يوم الأربعاء ٦ ذي القعدة من السنة المذكورة، فأمر الخديو بتشييعها تشييعًا كبيرًا بالإسكندرية، فسارت في طليعة الجنازة كتيبة من فرسان الشرطة، ثم كتيبة من الجند الرجالة منكسي الأسلحة، يتلوهم قراء الأحزاب والبردة، ثم جميع كبار الموظفين بالإسكندرية، فتلاميذ المدارس، فجم غفير من الأعيان حتى أوصلوا النعش إلى السكة الحديد، فجعلوه في قطار مخصوص سافر به من هناك إلى منية ابن الخصيب، ونقل منها إلى

الشاطئ الشرقي حيث دفن بمقبرة بلده. وخلف المترجم ثروة واسعة، وولدا واحدًا عمره نحو سنتين، وثلاث بنات. وقد رثاه الشيخ علي الليثي بقصيدة أولها:

لا تأمن الدهر واحذره أخا الفطن ... فعنصر الدهر مطبوع على المحن
يا سابحًا في عباب اللهو من عمه ... دع الأماني واحذر عادي الزمن
دهر تنكر في حاليه لا ثقة ... به لداريه في سر وفي علن
بينا نرى المرء في أزر الصفا جذلًا ... إذ ألبسته المنايا حلة الكفن
يمسي وأزهار روض العيش يانعة ... حينًا ويصبح منعيًا على ظعن
ذي شيمة الدهر لم يسلم مسالمه ... هيهات يرعى ذمامًا غير مؤتمن
نرجو وفاه ولو كان الوفي لما ... أودى[1] بنفس أبي سلطان ذي المنن

ومنها والله أعلم بما يقول:

يا لهف نفسي على واف له همم ... ببعضها لو تحلى الدهر لم يخن

ومنها:

إني لأعجب من ساع لغائلة ... وكان يرجو شفاء الروح والبدن
لكن قضى الله من إتمام نعمته ... بأن يموت شهيدًا نازح الوطن
من مثله قام بالأمر العظيم وقد ... كان الزمان عبوس الوجه بالفطن

ومنها في إقامة الخديو مأتمه:

وبعد أن مات إتمامًا لنائله ... أحيا مآتمه جريًا على السنن

---

(١) في الأصل: أوردي. وهو سبق قلم.

هـذي العنايـة قـد ود الحـسود لـه ... لـو كـان أودي ولاقـى مثلهـا وفنـي
قل للحسود انتهض واحلل مكانته ... خلالك الجو فاقرع هامة الفتن[1]
يـا شـامتًا بنعـي المكرمـات فعـش ... وخـذ أمانًـا بمـا تهـوى مـن الـزمن
هـذا وإلا فـنح مثلـى مـساعدة ... وانثـر فرائـد دمـع غـالي الـثمن
مـا كـل مـن مـات تبكيـه الكـرام ولا ... كـل البكـاء بكـاء الوالـه الحـزن
هـذي مـساجده هـذي مدارسـه ... هـذي منـازل أضـياف علـى سـنن
لا أكـذب الله إنـي مـت مـن أسـف ... لـولا يقيني بوشك القرب لـم أكـن
وقـد كفـاني رثـا شـجو يؤرخـه ... سلطانه باشا شهيدًا مات يا حزني

وكان للمترجم إلمام بالأدب وقرض الشعر، اشتهر عنه نظم النوع المسمى بالصعيد بالواو، وأخبرني من أثق بقوله أنه اطلع على قصيدة له في مدح حسن باشا الشريعي رحمهما الله.

وحدثني صديقنا علي رفاعة باشا، ابن رفاعة بك الشهير قال: كانت بيني وبين المترجم وحشة ازدادت لما جعلت وكيلًا للمعارف إبان الثورة العرابية، ثم عزلت من هذا المنصب بعيد الثورة، وقصدت السفر إلى بلدتي طهطا، فلقيته بالقطار، فلما وقعت عينه على عينه نظر إليَّ نظر الشامت ثم قال: إيه يا علي بك، لقد أجاد الشاعر في قوله:

برغم شبيب فارق السيف كفه ... وكانا على العلات يصطحبان

فقلت: نعم أجاد، وأجود منه قول الآخر:

---

(١) هكذا في الأصل، وربما كان اللفظ القنن، جمع قنة.

إنـي لأرفـع عينـي حـين أرفعهـا[1] علـى كثيـر ولكـن لا أرى أحـدا

obeikandl.com

(١) في الأصل بخط المؤلف أيضًا: أفتح ... أفتحها. تحت ما هو مذكور فوق.

ترجمة مصطفى باشا الخزينة دار

جركسي الأصل، اشتراه عزت باشا، أحد الصدور في زمن السلطان محمود الثاني، ورباه صغيرًا في القسطنطينية، ثم أتى به إلى مصر سنة ١٢٥٢، فاشتراه كتخداها عباس باشا ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا، وحظي عنده حظوة عظيمة، وقدمه على سائر مملوكيه، ولما تولى إبراهيم باشا ابن محمد علي على مصر سنة ١٢٦٤ استأذن منه عباس باشا في السفر إلى الحج، فسافر إلى الحجاز وأقسم بأنه لا يعود لمصر ما دام عمه واليًا عليها، لوحشة وقعت بينهما. وأخذ المترجم معه، فلما وصل إلى مكة وأدى فريضة الحج، وصل إليه البشير بموت عمه إبراهيم باشا، وتوليته مكانه، وصادف ذلك موت خزينة داره راغب أغا الموره لي، فأقام المترجم بدله وأعتقه، ولزمه من ذلك الحين لقب الخزينة دار، ثم جعله رئيسًا لمملوكيه، وأنعم عليه برتبة أميرالاي، ووظف له ألف دينار مصري في السنة، وعاد معه إلى مصر، فكبر شأنه، وعظمت منزلته بين الأمراء، وأمر ونهى في الولاية، وحل عند سيده بمنزلة كبيرة، حتى أمر أن يكون أمر المترجم كأمره نافذًا لا يرد في كافة الدواوين، وكان يقول له: أنت يا مصطفى مثل أولادي، والمترجم لا يقابل ذلك إلا بالصدق والإخلاص في الخدمة، والوالي يوالي بره، ويزيد في إعزازه، حتى أمر أن يركب مثل ركوبه في موكب بجند وحاشية، فاستعفى من ذلك وقال: عبدكم يكفيه ركوب جنديين يستخدمهما في خدمة أفندينا، فقبل منه وأعفاه، وتسامع الناس بذلك فلامه بعض أخصائه على إبائه هذا الشرف العظيم، فقال له:

أنتم جهلاء لا تقرءون العواقب، أما تعلمون أنه إذا مات أو غضب عليَّ أسلب هذا الشرف وينحط قدري بين الناس، أفليس الأولى لي أن أبقى على حالة واحدة لا أغيرها؟

وكان المترجم ميالًا لفعل الخير يسعى فيه جهده، يروى أنه أنقذ نحو ثلاثمائة شخص من القتل والنفي لنفاذ كلمته عند الوالي.

ويروى أن عباسًا باشا غضب مرة على أحمد باشا المنكلي، وكان من جلة القواد، فجفاه الناس وخصوصًا الأمراء على عادتهم مع من يغضب عليهم الولاة، حتى يبلغ بالواحد أنه لا يستطيع المرور أمام دورهم، واتفق أن المنكلي ذهب يوم العيد إلى العباسية لمقابلة الوالي وطلب العفو، فلقي إعراضًا من الحاشية ونفورًا، ورآه المترجم على هذا الحال فصعب عليه مكانه لما كان يعلمه عنه من علو المنزلة عند الولاة السابقين، فأسرع إليه وأكرمه وأمر له بالقهوة والدخان، وجلس بين يديه متأدبًا، ونمى الخبر لعباس باشا فغضب واستدعى المترجم ووبخه على إكرامه رجلًا مغضوبًا عليه منه، فتلطف معه وقال له: حلم أفندينا أكبر من كل ذنب، وهذا الرجل تعلمون حسن بلائه في الخدمة، وقد جرأني هذا الحلم بأن سكنت روعه وأخبرته برضاكم عنه، وأنكم دائمًا تذكرونه بالخير. وتقولون: هذا رفيقنا بالشام يوم كنا مع عمنا في المحاربة، وأفندينا أكرم من ألا يقبل شفاعة عبده فيه، فضحك عباس باشا وقال: لا بأس عليه قد عفوت عنه، ثم استدعاه فدخل وقبل الأرض من شدة فرحه ودنا منه حتى

قبل قدمه، فأجلسه وبش في وجهه وقال له: أنت (أرقداش) ثم صرفه شاكرًا مسرورًا.

ثم لما مات عباس باشا بقي المترجم خزينة دارًا لدائرته زمنًا قليلًا، وتولى محمد سعيد باشا على مصر وكان بالإسكندرية فتأخر بها خمسة أيام خوفًا من أن تغتاله شيعة عباس باشا إذا حضر إلى القاهرة لما بلغه من أن الألفي يريد تولية الأمير إلهامي باشا ابن عباس باشا، فتأخر حتى كتب له الأعيان والأمراء بالطاعة وأرسلوا كتابهم إليه وفيه توقيع المترجم، فاطمأن وحضر إلى القاهرة ونزل في قصر شبرا عند أخيه حليم باشا، فبات عنده ليلة لم يهنأ فيها بنوم وأخبر أخاه أنه بلغه عن المترجم أن عنده في العباسية خمسمائة فارس بسلاحهم، وأنه يخشى من هجومه بهم على القصر قصد اغتياله، فصرف عنه أخوه هذا الوسواس، ثم طلب المترجم بعد ذلك إلى القلعة وخرج إليه حسن باشا المناسترلي وقال له: أفندينا يعلم أنك رجل عاقل فما هذه الخمسمائة الفارس التي عندك بالعباسية؟ أتحاول أن تحدث بهم أمرًا، أو تجدد لك ملكًا؟ فقال: معاذ الله من ذلك إنما أنا عبد من عبيد أفندينا، وكل ما سمعه عني زور وبهتان من سعى المفسدين، وبعد فهل هذه الفرسان في بطن الأرض أو فوق ظهرها، وكيف خفي عليكم أمرها، نحن ليس عندنا غير عشرين فارسًا لحفظ قصور الحرم، فتبين لهم صدقه. ثم لما أراد سعيد باشا السفر إلى دار السلطنة لشكر السلطان على توليته -على عادة ولاة مصر من بني محمد على مع سلاطين آل عثمان- وجد خزانة مصر خالية من المال، فطلب

من المترجم إقراضه خمسين ألف دينار من أموال عباس باشا التي بيده، فأبى وتوقف وقال: إنما أنا أمين عليها وصاحبها إلهامي باشا بإستنبول، ولا يجوز لي التصرف في ماله بغير إذنه. فتداخل بعض الأمراء في الأمر، حتى رضي بإقراضه القدر المذكور بشرط أن يكتب صكًّا يوقع عليه، ففعل وأخذ المال، ولما حضر إلهامي باشا من دار السلطنة أعطاه المترجم الصك وقال له: هذا المال أخذه عم أبيك، فإن شئت طالبته به وإن شئت تجاوزت له عنه، فعدت هذه الحادثة من مواقف المترجم المحمودة.

وبقي المترجم خزينة دارًا لإلهامي باشا حتى رآه ينفق أمواله في غير وجهها، فنصحه بأنه إذا دام على هذا الحال لا يبقى ولا يذر شيئًا مما تركه والده، وأوصاه بالحزم، وقال له في عرض كلامه: يا سيدي، أنا لا أنهاك عن الكرم والإحسان إلى الفقراء، ولكني أنهاك عن الإسراف والتبذير والإنعام على صغار الخدم بهذه الجواهر والنفائس الثمينة التي نراها في أيديهم كل يوم، ولما رأى إعراض الأمير عنه وتماديه فيما هو فيه استعفى من منصبه ولزم داره التي بالتبليطة. ثم بدا له السفر إلى دار السلطنة فسافر إليها، وعلم السلطان عبد المجيد بن محمود بمقدمه فطلبه إلى القصر، ولكنه لم يقابله بل أمر أولاده الأمراء مرادًا وعبد الحميد ورشادًا بإكرامه، فقابلوه ولاطفوه، ثم قيل له: إن في نية السلطان الإنعام عليه برتبة باشا، وأشير عليه بعدم السفر فلم يوفق للإقامة بل سافر بغير إذن إلى الحجاز فحج وعاد لمصر، وكان الوالي سعيد باشا أرسل إلى كامل باشا زوج

أخته الأميرة زينب هانم أن يراقب المترجم مدة وجوده بدار السلطنة؛ لأنه يوجس من سفره خيفة، فأعلمه أنه تحقق من أن الرجل ليس له مقصد سوى التنزه والسياحة فقط، وأراد سعيد باشا مرة استخدامه فشكر ولم يقبل، ولما تولى إسماعيل باشا على مصر أنعم عليه برتبة ميرميران وأمر باستخدامه عضوًا في مجلس الأحكام فاعتذر عن الاستخدام وقال للرسول: إن كنتم تجبروني على الخدمة لأجل رتبتكم فهاك (فرمانها) أرده لأفندينا، فأقره إسماعيل باشا على الرتبة، وأعفاه من الخدمة.

وبقي بعد ذلك في داره وينتقل تارة إلى ضياعه يراقبها وينفق من غلتها حتى وافاه أجله، فمات محمود السيرة، عف السريرة، قليل الشاكين، كثير الشاكرين، لا يقطع فرضًا، ولا يقصر عن نافلة، مع إحسان للفقراء وسعة في النفقة من غير تقتير ولا إسراف، وخلف ثروة واسعة وأموالًا طائلة من غير عقب؛ لأنه لم يتزوج في عمره إلا بنت راغب أغا سلفه في الخزينة دارية، وكان إلهامي باشا أراد أن يزوجها لشكيب باشا مدير ديوان الأراضي الأميرية الآن، فلم تقبله واختارت المترجم فتزوجها وانتقل إلى دارها فأقام معها نحو ثلاثة أعوام، ثم فارقها بكرًا لم يبن بها رحمه الله تعالى.

ترجمة الشيخ محمد أكرم الأفغاني

هو الشيخ الأجل، والعالم العامل، القدوة الورع، نزيل القاهرة، أصله من القبيلة الأفريدية النازلة في مضيق جبل حيدر المشهور الآن بحبل خيبر الفاصل بين الهند وبلاد الأفغان، ولد ونشأ به، ثم رحل إلى الهند لطلب العلم وهو في الحادية والعشرين، فورد لكنهوه وهي حافلة بالعلماء، فقرأ العربية والمنطق والحكمة والعقائد والتصوف والفقه الحنفي والطب والرياضيات على الطريقة القديمة حتى صار من الفحول المشار إليهم، مع العفة والتقوى والتشدد في الدين، ثم ساح في أغلب بلاد الهند وجعل أكثر إقامته في لكنهوه، ثم بدا له السفر إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج، فسافر إليه حوالي سنة ١٢٧٢، وبعد قضاء المناسك ورد على مصر ونزل بالأزهر برواق الأفغانية المشهور برواق السليمانية، فاجتمع به هناك جلة العلماء مثل الشيخ حسين المرصفي وغيره، وبلغ خبره محمد أفندي الأفغاني المشهور بالكشميرجي تاجر المطارف الكشميرية بجوار خان الخليلي، فاجتمع به وصوب له الانتقال إلى مكان فوق حانوته، فاكترى به محلًّا وانتقل إليه وأقام به نحو تسعة أشهر، وتسامع به الأكابر مثل حسن باشا المنسترلي كتخدا مصر وإسماعيل باشا عاصم، فسعوا إليه وزاروه، وبلغ خبره الأمير أحمد باشا رفعت بن إبراهيم باشا والي مصر من محمد أفندي الأفغاني فاشتاق لرؤيته، إلا أنه كان على قدم السفر إلى ضيعة له، فأرسل له خمسة وعشرين دينارًا حباه بها.

ثم سافر المترجم إلى دار السلطنة واجتمع هناك بعارف حكمت بك الذي كان شيخًا للإسلام وبغيره من العلماء، فظن عارف بك أن مجيئه لطلب منصب علمي أو فتح (تكية) أو نوال صلة، وسأله عن ذلك ووعده بالمساعدة، فعرفه المترجم حقيقة أمره، وأنه ما ورد إلا للسياحة. وأقام بدار السلطنة نحو عشرة أشهر، ثم سافر منها إلى الشام، ومر بأزمير وتسامع به علماؤها فحضر له كبيرهم إلى السفينة، وسأله النزول وألح عليه فقبل، وأقام عندهم عشرة أشهر أخرى قرأ لهم فيها ديباجة الفتوحات المكية، ثم سافر على غير رغبته إلى الشام، فلقي من علمائها إكرامًا زائدًا واحتفالًا كبيرًا، لا سيما من كبيرهم الشيخ سليم العطار، وتلقوا عنه بعض رسائل منها تشريح الأفلاك في الهيئة، وفصوص الحكم لابن العربي. ثم أراد الشخوص إلى بغداد، ولكنه استصعب السفر إليها برًّا؛ لكبر سنه وبدانة جسمه، فعول على السفر إليها بحرًا، وأتى مصر بنية السفر منها في البحر الأحمر وخليج فارس إلى البصرة، ومنها إلى بغداد، فلما وردها أنزله السيد أحمد الحسيني شيخ طائفة النحاسين بداره وقام بشئونه أتم قيام، وتراخت عزيمة المترجم عن السفر، وبدا له أن يتخذ القاهرة دار إقامة ما شاء الله تعالى، فانتقل إلى مكان اكتراه بخان الخليلي، وأقام به بضع سنوات منكمشًا عن العالم مقبلًا على شأنه، مواظبًا على الإقراء والتدريس، ولم يكن معه غير أحد تلاميذه، وعلى هذا التلميذ قرأ شيخنا العلامة الشيخ حسن الطويل خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملي.

ثم لما كانت ولاية إسماعيل باشا على مصر أجرى على المترجم عشرة دنانير في الشهر تصرف له من الحكومة، واستصوب أبو بكر راتب باشا ناظر الأوقاف إذ ذاك انتقال الشيخ إلى مدرسة محمد بك أبي الذهب التي بجوار الأزهر، فانتقل إليها وسكن بها في قاعة الشيخ الصبان الذي كان موقتًا لهذه المدرسة، وأقام المترجم بها نحو أربع سنوات، ثم وافاه أجله المحتوم في ربيع الثاني سنة ١٢٨٧، وقد جاوز التسعين، ودفن ببستان العلماء في مقبرة المجاورين، ومات من غير عقب؛ لأنه لم يتزوج في حياته.

وكان ربعة، أبيض اللون واللحية كثها، كبير الهامة، بدينًا مهيبًا إذا سار في الطريق قام له الناس من يعرفه ومن لا يعرفه، حليمًا متواضعًا، عفيف النفس زاهدًا، مع كمال عقل وحسن فراسة، وكانت له اليد الطولى في كافة العلوم، وكان الشيخ مصطفى العروسي شيخ الأزهر يعرف له قدره، ويزوره بمدرسة محمد بك. ولما مات الشيخ الباجوري وبقي الأزهر بلا شيخ اكتفاء بالوكلاء، ولهج الناس بضرورة إقامة شيخ، قال الشيخ الأشموني: لو استشرت في ذلك ما رضيت بسوى الشيخ محمد أكرم، فإنه رجل له جانب مع الله. وبلغ المترجم قوله فتبسم وقال: ما لي وأزهرهم، لو عرضوا عليَّ ولاية مصر ما قبلتها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ترجمة الشيخ محمد الأشموني الشافعي

أصله من أشمون جريس، قرية من أعمال المنوفية، وقد أخبر أنه من نسل أبي مدين التلمساني، ولد سنة ١٢١٨، وحضر إلى الأزهر لطلب العلم، فتلقى عن القويسني، والبولاقي، والفضالي، والأمير، والباجوري، والمرصفي وغيره. وكان أكثر حضوره على البولاقي، والباجوري، واشتهر بالذكاء، وجودة التعليق، وإتقان التحصيل، إلى أن تأهل للتدريس فدرس الكتب المتداولة بالأزهر من صغيرة وكبيرة، وقرأ المطول، وجمع الجوامع، وكتب التفسير، والحديث، والعقائد وغيرها مرات بعذوبة منطق، وحسن إلقاء، ولم يؤلف كتبًا؛ وإنما كتب عنه بعض الطلبة تقييدات عن قراءته للعقائد النسفية، وكذلك قيدوا عنه نحو ثلاثين كراسة حال قراءته لمختصر السعد، وأخذ عنه كثيرون من كبار علماء الأزهر، وعمر عمرًا طويلًا حتى ألحق الأجداد بالأحفاد، وصار جميع من بالأزهر إمَّا تلاميذه أو ممن في طبقتهم، وروي عنه أن الشيخ محمد الإنبابي الذي كان شيخًا على الأزهر كان ممن تلقى عنه، إلا أن الشيخ الإنبابي كان ينكر ذلك.

ولم يعقب المترجم لأنه لم يتزوج قط، وكان القائم بخدمته في داره أخت له وجارية سوداء، وعبد اسمه محبوب تبناه وزوجه من الجارية، وفتح له حانوتًا بالتربيعة وصيره من التجار، ثم وقف على الثلاثة داره التي كان يسكنها بالباطنية بالقرب من الأزهر.

ولم ينقطع عن التدريس والإفادة إلا قبل موته ببضع سنوات لضعف أصابه من الكبر، وأبطل حركته في آخر أيامه. وكانت وفاته، ليلة الجمعة رابع ذي القعدة سنة ١٣٢١ عن مائة سنة وثلاث سنوات، وأمر الخديو بتجهيزه من الأوقاف الخيرية، وأطلقوا منادين في الطرق للأنباء بوفاته، فساروا مثنى رافعين أصواتهم بالنعي، واجتمع في صبيحة الوفاة الألوف من صنوف الناس لتشييع جنازته. قيل: إنهم بلغوا نحو أربعين ألفًا، وحضر أيضًا الوزير المنبهي المراكشي وزير الحرب بالمغرب، وكان مارًّا بمصر للحج وأحب أن تكون نفقة التجهيز والمأتم من عنده فأخبروه بأمر الخديو، وتقدم شيخ الأزهر السيد على البيلاوي للصلاة عليه بالأزهر، وتلوا قبيل الصلاة مرثية من نظم الشيخ إبراهيم راضي مطلعها:

لا قلب للإسلام غير حزين فاليوم فيه انهدَّ ركن الدين

ثم خرجوا بالجنازة إلى القرافة ودفنوه في مقبرة الشيخ الإنبابي.

وكان رحمه الله أنيس المحضر، كثير الدعابة والمزاح مع الطلبة، شديد الورع، متصفًا بالزهد والتقشف، وقلة الاحتفال برفاهة العيش، إذا سار في الطريق توكأ على عصاه بيد ووضع الأخرى على كتف من يسايره، لا سيما بعد علو السن وضعف القوة. حضر مرة احتفالًا مما يقام لكسر السد أو المولد النبوي، ورموا بالسهام النارية كعادتهم، فتجاوز سهم منها مداه ووقع على الحاضرين، فأصاب المترجم في إحدى عينيه وذهب بها، فرقَّ له الخديو إذ ذاك، ورتب له راتبًا شهريًّا علاوة على راتب الأزهر رحمه الله تعالى.

ترجمة الغازي أحمد مختار باشا

ولد في بروسة من مدائن آسيا الصغرى شهر (سبتمبر سنة ١٨٣٧) وقدم الآستانة صغيرًا، فدخل المكتب الحربي العالي فنبغ من بين أقرانه، ولم يخرج منه حتى نال رتبة قائم مقام وحضر حرب القرم، ثم انتظم في عداد أركان حرب السردار الأكرم عمر باشا حين حمل على الجبل الأسود سنة ١٨٦٠ وامتاز بالبسالة خصوصًا في مضايق اوستروك، وكوفئ وقتئذ بترقية رتبته، ثم ما لبث أن عاد إلى الآستانة عقب إبرام الصلح، فجعل أستاذًا في المكتب الحربي. وفي سنة ١٨٦٦ جعله السلطان عبد العزيز مربيًا لنجله البكر يوسف أفندي عز الدين، فرافقه إلى إيطاليا وفرنسا، وإنكلترا، وألمانيا، والنمسا، فنال في أثناء ذلك وسام (اللجيون دونور) وغيره من فرنسا وسواها، وعاد إلى الآستانة سنة ١٨٦٧ فجعل مأمورًا لتحديد التخوم بين بلاد الدولة والجبل الأسود، فرجحت بسببه كفة الأولى إذ أبقى في حوزتها عدة مواقع حربية مهمة، وقوبل عمله هذا بترقيته لرتبة أمير اللواء وجعله عضوًا في المجلس الحربي، وفي ختام سنة ١٨٧٠ أرسل مع ضباط الجيش المرسل إلى اليمن تحت إمرة رديف باشا، فاستولى على مدينة يدي، ونال رتبة فريق، ثم أقيم مقام رديف باشا في القيادة الكبرى لنقله واليًا على الحجاز، فتمكن من الفوز على أهل اليمن، فرقي إلى رتبة مشير وجعل واليًا على اليمن، ثم لما رجع إلى الآستانة أقيم وزيرًا لوزارة النافعة فاستقال منها، ثم جعل واليًا لكريد، ثم مشيرًا للفيلق الثاني في شومله سنة ١٨٧٣، ثم مشيرًا للفيلق الرابع في

أرزروم سنة ١٨٧٤، ثم قائدًا لجيش الهرسك بدلًا من رءوف باشا سنة ١٨٧٥ فحصن مواقعها، وقاوم الثورة حتى عقدت الهدنة في ختام سنة ١٨٧٦ فأعيد إلى كريد واليًا عليها، ولكنه لم يبق بها شهرًا واحدًا حتى أمر بالذهاب إلى أرزروم لقيادة الفيلق الرابع وحماية المواقع العثمانية عند حدود القوقاز. واشتهر بالفوز في الوقائع الحربية مع الروسيا في جهة قرص، وألكسندر، وبول وغيرها، خصوصًا بمعسكر جديكلر في شهر أغسطس سنة ١٨٧٧ حتى استحق لقب الغازي، ولما قطع الغراندوق ميخائيل الصلات بين فرقته وسائر الجيوش العثمانية تمكن هو من النجاة، ثم استدعى إلى الآستانة فجعل ناظرًا (للطوبخانة) وكان ذلك في شهر أفريل سنة ١٨٧٨، وبعد ذلك عين قائدًا لجيش يانيا، ثم واليًا لكريد مرة ثالثة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ فتمكن من توطيد الأمن بها وألف بين أهلها المسلمين والمسيحيين، فكتبوا عريضة رفعوها للباب العالي في شهر أكتوبر سنة ١٨٧٨ بالثناء عليه. وبعد ذلك أرسل إلى ألبانيا لتنفيذ العهدة البرلينية المتعلقة بها، فدوخ الثائرين، وعاد بعد حين إلى الآستانة ولبث يقوم فيها بالمهام الجسيمة في الجيش، حتى أرسل إلى مصر معتمدًا عاليًا سنة[1].

(١) ترك في الأصل بياض لتعيين السنة.